نظرة في المطالعة

للمرحومة عفيفة بنت الاستاذ سعيد الخوري الشرتوني وقريئة اخراجه نصري موسى من بكفيا الخريجة في ٦ شباط (فبراير) من هذه السنة ١٩٠٦ في مدينة بارا من اعمال البرازيل عن عشرين عاماً

المطالعة سياحة العقل في ما كوّنت العقول . وتنقّلهُ في ما دوّنت الاقلام من افكار الحكماء وآراء العقلاء وعلوم العلماء وقصائد الشعراء واخبار القدماء واوصاف البلاد فيجوب القارئُ الارض شرقاً وغرباً وهو تحت سقف بيتهِ فالمطالع كالمسافر هذا يتنقل جسمهُ وذاك يتنقل فكرهُ

احتياج المطالع كاحتياج المسافر

لا بدَّ لمن يريد السفر ان يكون صحيح البدن سليم العقل متجه النفس الى غرض يحاول ادراكهُ بذلك السفر . والمطالع نظيرهُ فهو يحتاج الى الثلاثة المذكورة حتى يجني من مطالعتهِ ثماراً لذيذة ويتمتّع منها بفاكهةٍ نافعة

طرق السفر وكتب المطالعة

ان طرق السفر قد تكون مخيفة ذات مخاطر إما من قبَل قطاع الطريق واللصوص . وإما من الوحوش الضارية فلا غنى لمن يضطر الى السير فيها ان يتخذ عدة ويستصحب رفاقاً انقياداً لما ربما يعترضهُ من المخاطر كذلك الكتب التي يندفع الى قراءتها قد تكون مكامن للصوص الاخلاق الجيدة فتثب عبارات منها بسلاح التمويه والزخرفة على عقل المطالع وتنهب من آدابهِ كما يثب اللصوص على المسافر وينهبون امتعتهُ واثقالهُ وربما تخرج بعقل المطالع عما كان عليهِ من المبادىء الصالحة وتجرهُ الى مبادىء طالحة فيكون كالسائح الذي يفتك بهِ قطّاع الطريق

فما كان من الكتب كهاتيك الطرق فلا يقدر على مطالعتهِ الاَّ من كان لهُ من العقل قوّة كافية تريهِ تلك الاخطار وتعينهُ على ردّها وتذليلها

وقد تكون طرق السفر ضيّقة واقعة على شفير مهواة فان زلّت بالسائر قدمهُ او بالراكب مطيتهُ لقي حتفهُ فلا يتقي السقوط الاَّ اذا جانب حافة الطريق وثبّت في وضع قدميهِ وتقلها . واشبه شيء بهذه الطرق كتب تتضمّن من الاخبار والقصص ما يجعل الخطر على الآداب قريباً . فان لم يكن للطالع عقل يريهِ الخطر القريب منهُ يخشَ عليهِ ان يقع في مهاوي الاخطار بل يخشَ عليهِ ان تقوم قيامة آدابهِ . ويخرج عن جميل عاداتهِ . وقد تكون طرق

السفر وعرة شائكة يصعب قطعها كالطرق الكثيرة العقبات او الطويلة المعطشة . فمن ساقه الدهر الى اجتيازها فان لم يكن ضليعاً مستصحباً من الزاد والمزاد ما يردُّ عنهُ الجوع والعطش هلك في تلك المفاوز . ومثلهُ من يحمل نفسهُ على مطالعة كتب يشقُّ عليهِ فهمها ولا يقوى عقلهُ على تناول معانيها فيضيع وقتهُ في قراءتها ولا يحصل منها على فائدة . فاذا تصفحها من اولها الى آخرها كان مثلهُ مثل من يقطع الطريق تحت ستر الظلام فلا يرى شيئاً من البلاد التي على جوانبها او مثل غريب يمرُّ نهاراً باقليم يرى من قراهُ وقطانهِ ولا يعرف قريةً ولا انساناً فما يستطيع الاَّ ان يقول رأيت قرًى كثيرة ولا يمكنهُ ان يسمّي قريةً واحدةً منها فتكون مطالعة مثل هذه الاسفار جافية موحشة لا لذَّة فيها ولا فائدة وراءها

وقد تكون البلاد التي يتنقل فيها قذرةً خبيثة الهواء فتنبو نفسهُ عنها لما يلحق نظرهُ وسمعهُ من الالم لرؤية الاقذار وخبث الرائحة ويقابل بلاداً تلك صفتها كتب تكثر فيها الالفاظ المستقبحة والقصص المستكرهة مما لا يسع المهذَّب الاَّ ان يسد أُذنيهِ عن سماعها ملفوظةً ويغمض عينيهِ عن رؤية حروفها مكتوبةً . فمن طالع مكتبةً في بلد فاسد الهواء كدر الماء كان عرضةً لان تهجم عليهِ العِلَل فتذهب بحياتهِ . ومثلهُ عاقبةً ومآلاً من يكثر من قراءة نظائر هاتيك الكتب فلا يؤمن عليهِ ان تلصق الأدران بنفسهِ فتلبس بعد بياض نزاهتها سواد المخازي

وقد تكون طرق السفر سهلة ممهدةً تمرُّ بها العجلات وعلى جوانبها الاشجار والحدائق والمنازل الجميلة والدور البديعة تذهب بسالكها الى بلاد عامرة تخفق فوقها راية العلم والأدب او الى مدن فيها القصور الشاهقة والاسواق الحافلة . والمدارس الزاهرة . ومظاهر سكانها مما يروق الناظر ومعاشرتهم مما يسرُّ الخاطر ويثير العقل . ومثل هذه الطرق الكتب النقية المهذَّبة الخالية من الالفاظ المستهجنة والتراكيب المعقَّدة الظاهرة فيها المعاني ظهور الاصحاء من اهل الجمال في اخفر ثياب الخمل والحرير فيجتمع فيها جمال اللابس بجمال الملبوس

فمن هاتيك الكتب يجني المطالع الثمار الطيبة الطعم الحسنة المنظر فيرجع عنها مسرور القلب بما رأى مستنير الذهن بما عرف . ينثر لسانهُ الدرر الغالية مما تناول جنانهُ من تلك الكتب التي تقابل من يطالعها بالابتسام وتجلسهُ على مائدة حافلة لا بانواع الطعام لكن بالوان من الافكار . لذَّتها عند القوة العاقلة تفوق لذَّة الاطعمة الطيبة عند القوة الذائقة . فان تيسر للطالع ان لا يتصفَّح الاَّ كتباً من هذا النمط فكأنما اقتصر على المناهل العذبة والموارد الصافية فحسن عليها صحتهُ وبهجتهُ عيشهُ ولا يصادف ما يؤلم حاسَّةً من حواسهِ بخلاف

الكتب الشبيهة بالمياه الآجنة في الامكنة الوبيلة التي تعاف النفس شربها ويعلُّ المزاج منها كالاسفار المشحونة بالاقاصيص المصنوعة والحكايات الموضوعة فما راجت هذه الاسفار في قوم الاَّ اطفأت انوار عقولهم وقذفت بهم الى غمار الذلّ . فانظر الى الصين التي تقدَّر بثلث العالم ترَ الى اي حطة نزلت الخرافات باهل تلك المملكة الكبرى فمن اعظم الاحسان الى بني الانسان احراق كتب الخرافات واخلاء الدنيا من آثارها

ثم ان السفر قد يكون محصرًا في المملكة التي ينتسب المسافر اليها وقد لا يكون كذلك ومثلهُ المطالعة فهي إما منحصرة في لغة المطالع ومؤلفات علماء بلادهِ وإما متجاوزتها الى لغة قوم او لغات اقوام آخرين . فمن الكتب المكتوبة بلسان غير عربي ما هو كمعادن الفضة والذهب ومغاوص اللؤلؤ مثل كتب العلوم والفنون والصنائع . ومنها ما هو كالبساتين الحاوية انواعًا من الاشجار والفواكه وضروبًا من البقول الطيبة والنباتات العطريَّة مثل كتب التاريخ وسير العلماء والادباء والفضلاء . ومنها قصص وحكايات مما يتسلى بهِ العوام في اوقات الفراغ . على ان في هذه قسمًا مما يجب تطهير الارض منهُ وتسليط النار عليهِ . فمن يقرأ كتب بلغاء الافرنج وعلمائهم لا يصدر عنها الاَّ وفي ذهنهِ جواهر فوائد وكذلك من يتصفح كتب العلماء من كل جيل . ولا يخفى ان نحو ثمانية اعشار ما تذيعهُ جرائدنا ومجلاَّتنا معرَّب عن كتب الاعاجم ومجلاَّتهم وصحفهم وفي بعض هذه المعرَّبات من الدلائل على ما تضمنتهُ كتبهم ومشوراتهم من الثمار المكروهة ما يهجم بالقارىء على تعلم لغة العجمية والاجتهاد لاكتساب ملكة الانشاء في العربيَّة

حياة مطالع التاريخ

من يطالع التاريخ فكأنهُ وُلد منذ وُجد البشر على الارض وبقي حيًّا يتنقل من عصر الى عصر . ولا غرو فكتب التاريخ صور الامم الخالية ورسوم القرون الماضية فاذا تصفحها الانسان فكأنما رأى تلك الامم وعرف ما كانوا عليهِ وما جرى بينهم من الحروب وما ارتبطوا بهِ من المواثيق . فقارئ التاريخ هو الحي الاكبر والسائح الاعظم فان كان ممن رزقوا ثقابة الذهن وقوَّة الاستنتاج كان لا بدَّ من عجلهِ ولا أبعد من حديثهِ ولا اغزر منهُ مادةً للكتابة اذ هو كما قلت اوسع روايةً واطول عمرًا

ومن درى اخبارَ من قبلهُ اضاف اعمارًا الى عمرهِ

الخلاصة

اقصي ما نويت من بث هذه الخواطر ان احثَّ امثالي على تغذية العقل واغناء الآداب

بمطالعة تكون كالطعام النافع . ولامراء انهُ يستدل على انتفاع المرء من مطالعة كتاب علمي بارتقائهِ الى درجة العارفين بذلك العلم ومن مطالعة كتاب تهذيبي بتحسن اخلاقهِ والنزوع عن سيء عاداتهِ فغاية الغذاء حفظ الحياة وغاية المطالعة تنوير الذهن فان كانت المطالعة لا تنير الذهن ولا تهذب النفس فهي كطعام لا يحفظ الحياة

هذا ومن اراد ان يطيل البحث في هذا الشأن فقد سهلت لهُ السبيل ومن اراد ان يتدبر ما قلت ممن يهمهُ تنوير الذهن مع ادب النفس وطهارة القلب فما احسبهُ الاَّ مقبلاً على مقالتي كالشهوان على بواكير الفاكهة

النبات في القمر

أتى على الارض زمن لم يكن لها فيهِ قمر يتبعها ويدور حولها ولا كانت مثلما تراها الآن بل كانت كشلة سائلة تغطيها قشرة سمكها نحو خمسة وثلاثين ميلاً . ولا يعلم متى كان ذلك تماماً وانما يعلم انهُ كان منذ ملايين من السنين ايام كانت الارض تدور على محورها بسرعة متزايدة قصرها اليوم حتى صار بضع ساعات فلما صار طولهُ ثلاث ساعات نزلت بالارض نازلة تعدُّ من اكبر النوازل في تاريخ الاجرام السموية فان قوة الابتعاد عن المركز فيها عظمت الى حدٍّ ان انفصل عنها خمسة آلاف مليون ميل مكعب من جرمها وقُذف بها الى الفضاء فكان منها القمر

ولا يخفى ان القمر اكبر التوابع والاقمار بكثير حتى انهُ يخيَّل للناظر اليهِ والى الارض من جرم مجاورٍ لها انهما سيار مزدوج . ولما كان جرمهُ اصغر من جرم الارض فان جاذبيتهُ اضعف من جاذبيتها بكثير . فلو أتيح لانسان منا ان يسافر اليهِ ويسكن فيهِ لوجد ان قوتهُ البدنيَّة تحاكي ستة اضعاف ما كانت عليهِ وهو على الارض اي انهُ يستطيع ان يرفع بيديهِ جسماً ثقلهُ ستة اضعاف ما يستطيع رفعهُ هنا ويركض بسرعة تساوي ستة اضعاف سرعتهِ هنا ويتمُّ من الاعمال ستة اضعاف ما يتمهُ هنا في وقت واحد . وذلك لان القمر يجذب الاجسام التي عليهِ بقوة تعادل سدس قوة جذب الارض للاجسام التي عليها

ومع ان المسافة التي تفصل بيننا وبين القمر تبلغ ٢٤٠٠٠٠ ميل فاننا نعلم عن طبيعة وجههِ المتجه الينا اكثر مما نعلم عن الاصقاع المتجمدة او عن قلب افريقية . فقد رسمت خرائط للسهول الواسعة السوداء التي تظهر فيهِ وصورت بالفوتغراف وكان يظن قبلاً انها بحور .